تمهيد: لقد توافدت على تونس أصنافا عديدة من العرقيات التي تفاعلت فيما بينها لتصنع نسيجا متجانسا، وانتشرت عبرها موجات من الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية التي اثرت سلبا على النمو الديمغرافي والمستوى المعيشي.

1- مكونات المجتمع التونسي الحديث: وهي عبارة عن أقليات تمثل 10% نكر منهم:

أ- سكان المدن:

- **الاتراك:** عددهم قليل جدا، حيث تركز معظمهم في عواصم الولايات والمدن الرئيسية، كانوا يتمتعون بكافة الامتيازات.

- **الاعلاج (المماليك):** هم عناصر أوربية مسيحية تواجدوا عن طريق الاسر، تولوا مهامات سامية في الدولة.

- **الكراغلة:** هم المولدون من أباء اتراك (رياس البحر أو الإنكشاريين) وأمهات تونسيات.

- **الحضر:** هم السكان الاصلين العرب، البربر والاشراف، بالإضافة الى الاندلسيين الذين توافدوا بكثرة خلال القرن 17م وكان لمجيئهم الأثر البالغ في تغطية النقص السكاني، وساهموا في انتعاش الاقتصاد والجانب العمراني، مما انعكس إيجابيا على المجتمع التونسي بالإضافة الى انتشار بعض العادات والتقاليد التي أدت الى تحضر أغلب المدن التونسية.

- **الدخلاء:** تتكون هذه الفئة من الجرابة و هم السكان الوافدين الى مدينة تونس من جزيرة جربة، بالإضافة الى العبيد (الشواشين) دخلوا الى المدينة عن طريق القوافل الصحراوية القادمة من بلاد السودان.

- **أهل الذمة:** توافدت جماعات يهودية الى المنطقة عبر هجرات متفرقة، حيث احتكروا المجال التجاري وأصبحت لهذه الفئة نفوذ، بالإضافة الى النصارى.

ب- سكان الأرياف:

- **قبائل الرعية:** تتألف غالبيتها من سكان الريف الذين يقومون بممارسة الزراعة.

- **قبائل المخزن:** كانت مهامها ضمان الاستقرار وجمع الضرائب.

- **القبائل المستقلة:** وهي المقيمة في المناطق النائية، كانت معادية للسلطة المركزية.

- **القبائل المتحالفة:** يطلق عليها القبائل المتعاونة، وهي تشكل تجمعات قبلية كبيرة تعرف بالاحلاف.

2- مظاهر الحياة الاجتماعية بتونس:

أ- اللباس: كان الاعيان يلبسون بلوزة و فوقها القشابية مصنوعة من الصوف، ويضعون فوق الرأس الشاشية التي يعلوها الزنزار و هو الجزء المتصل بالقشابية، أما النساء فكن يلبسن ملايتين واحدة من الامام و الثانية من الخلف، ولا تخطان ببعضهما البعض، ولكن تشبكان على الكتفين بمشبكين، و يلبسن عليهما حزام أحمر يربط بحلقة من نحاس، و يغطين رؤوسهن بعمامة يضعن عليها لثاما يغطي الرأس و الكتفين، وكن يحلين أذانهن بحلقات كبيرة من الفضة تشبك بالعمائم، كما كان يلبس الحايك(يدعى السفساري) أثناء خروجهن من المنزل (خاصة الطبقة الوسطى)، وهو من جهاز العروس.

ب- الغذاء: من أشهر المأكولات التي تميز بها المجتمع التونسي هو "الكسكس" كباقي مجتمعات دول شمال افريقيا، ومن عاداتهم طبخ طعام يسمى "الحلالم" وهو عبارة عن حساء، ويصنعون "المجامع" هو خبز يصنع من القمح يسمى عش العصفور، بالإضافة الى البقوليات وكان لحم الاضاحي يقدد...

ج- الاحتفالات: تنوعت الاحتفالات الدينية منها: عيد الفطر (يدعى بعيد السكر أو بيرم)، عيد الأضحى (يدعى ب قربان بيرامي)، المولد النبوي الشريف، عاشوراء، رمضان، ليلة القدر...، وكذلك الاحتفالات الاجتماعية المتمثلة في الخطبة، الزواج، الختان، العقيقة...، حيث كانت تزين الشوارع وتصنع الحلويات التقليدية وتبادل الزيارات وتوزع الصداقات على الفقراء....

3- الحالة الصحية: أثرت عدّة عوامل في الواقع الصحي بتونس في العصر الحديث، فقد عرفت فترات متعاقبة من الانكماش الديمغرافي الذي صاحبه انتشار الامراض و الأوبئة، مما كان له تأثير كبير على النمو الديمغرافي ، فظهرت موجات من الأوبئة خلال السنوات التالية: (1604 -1606)، 1621، (1657-1663)، (1675- 1680)، (1688-1692)، 1696،(1701- 1706) ،(1777-1779)، (1784 - 1785)، (1790- 1802)، 1816 ، 1822 ، فتعددت الامراض كالحمى، التيفوئيد، الشلل، الصقيع، وأشهر الأوبئة "الطاعون" بأنواعه.

نظرا لنقص الادوية و التأخر في المجال العلمي (الطب) ، لجأ العامة الى التداوي بالأعشاب و ذلك بالاعتماد على شرب المياه المباركة التي قُرأ عليها القرآن، واستخدام بعض الثمار كالتين، القرفة، زيت الزيتون، البصل و الثوم....، باستثناء بعض المساهمات للحكام (حسين بن علي و حمودة باشا) بإقامة العديد من المستشفيات من اجل الوقاية من هذه الامراض و الأوبئة الفتاكة التي أدت الى تراجع عدد السكان بشكل كبير.

4- الكوارث الطبيعية: بدأت المجاعات مع منتصف القرن 17م وازدادت حدتها مع نهاية القرن 18م و بداية القرن 19م، وعم القحط خلال السنوات التالية: 1662، (1671 – 1678)، (1700- 1703)، (1763- 1785)، 1796 ،(1803- 1805)، بالإضافة الى موجات من الزلازل العنيفة التي تسببت في خسائر مادية و بشرية، و ظاهرتي الجفاف و الجراد التي أدت الى قلة المحاصيل الزراعية و ارتفاع الأسعار، فارتفع عدد الموتى، حيث كان عدد سكان تونس في هذه الفترة ما بين 1200000 و 1500000 نسمة، سببت تلك الموجات من الأوبئة و المجاعات في تراجع عدد السكان و انكماش الوضع الديمغرافي خاصة في المدن ، حيث على سبيل المثال انخفض عدد سكان مدينة تونس من 1000000 الى 80000 نسمة سنة 1826.

5- الاسرة والمرأة: تعتبر الاسرة الوعاء الحضاري والثقافي للمجتمع التونسي، وكان للمرأة مكانة فيه ولعبت دورا كبيرا في تربية الأجيال ومساندة الرجل في ازدهار هذا المجتمع، حيث كان المجتمع التونسي في الغالب يعتمد على النظام القبلي وهذه القبائل تربطها صلات القرابة والصداقة، وتتشكل الجماعة من أربع الى خمس أُسر، وهذه الجماعات تُكون القبيلة التي يترأسها كبيرهم يسمى بالشيخ.

خاتمة: في الاخير نقول رغم التأثيرات العثمانية و الاندلسية على المجتمع التونسي، الا انه بقي متماسك بعاداته و تقاليده و عقيدته، اما بالنسبة لطبيعة العلاقة بين السكان و السلطة الحاكمة كانت متفاوتة حيث ظهرت عدة ثورات و تمردات على السلطة (ثورة علي بن غذاهم 1864) نظرا لفرض الضرائب المجحفة على العامة من السكان، في المقابل حظيت الفئة المتعاونة مع السلطة بامتيازات مما انعكس سلبا على المستوى المعيشي و الواقع الديمغرافي.